

زكريا تامر: خمس قصص

يوم أشهب

تمرّن شكري المبيض مع زملائه في السجن تمارين رياضية لا تخلو من عنف، غايتها الحفاظ على سلامة صحته، فأدت إلى إصابة جسمه بالكثير من الرضوض والكدمات والجروح، ومارس شكري المبيض هوايته في شوي الكستناء الفاكهة المفضلة لديه، فأحرقت النار أصابع يديه وقدميه وظهره وصدره وبطنه، وحاول شكري المبيض حلاقة ذقنه صباحاً بينما كان منهماكماً في الاستماع إلى ما يقدمه مذياعه من نشرات أخبار وأغان، فأخطأت يده اليمنى المسكّة بموسى الحلاقة، ولم تخلص جلد الوجه من شعر لا لزوم له، وذبحت بحركة طائشة العنق من الوريد إلى الوريد، فنقل شكري المبيض توّاً إلى أفضل مستشفى، وهناك حاول الأطباء إصلاحه، فعجزوا، ووضعت جثته في كيس من قماش متين، وسلمت إلى سيارة توزع الموتى يومياً على بيوت أهاليهم، ولم يواجه سائقها أية مشقة في الاهداء إلى بيت أهل شكري المبيض، ولكنه بوغت به خالياً منذ شهور، فأبوه مقبوض عليه بتهمة التشرد والتسول، وأخوه يحاكم لسطوه على أموال الدولة، وأمه مسجونة لاعتدائها الشفوي على أعراض نساء محترّمات، وأخته معتقلة لأنها تتعمد ألاّ تعبر عن فرحها أو حزنها.

وسأل سائق السيارة الجيران عن أقرباء شكري المبيض، فأخبروه أن عمه هاجر إلى أميركا وخاله وأبناء خاله وبناته إلى كندا وابن خالته إلى أستراليا وخالته تعمل خادماً بدبي، فسأل السائق عن عناوين أصدقائه، ولكن كل الذين قيل عليهم إنهم من أصدقاء شكري المبيض أقسموا شاحبي الوجوه أنهم ليسوا بأصدقائه، ولم يتبادلوا معه كلمة واحدة، ولو رأوه اليوم مصادفة لما عرفوه، فخجل شكري المبيض من السائق، وانتهاز فرصة انشغاله بشراء خضروات وفاكهة طلبتها زوجته، ولاذ بالفرار، واختبأ في بيت أهله منتظراً عودتهم ليدفنوه مطلقين الزغاريد ابتهاجاً بخروجه من السجن.

مغني الليل

أوشك الليل أن ينتصف من دون أن يتوقف شفيق الكوا لحظة عن العزف على العود

والغناء الأغنية تلو الأغنية، أمام حشد من الرجال الذين أتوا إلى بيت مسعود الأصفر ملبين دعوته السخية إلى سهرة تنتهي عند أذان الفجر حافلة بالطرب وأطياب الطعام ومختلف أنواع الخمور والسجائر المحشوة بالتبغ والحشيش الأصلي، وقد أكلوا الطعام على مهل، واحتسوا كؤوس الخمور، ودخنوا السجائر، وتحادثوا معاً بأصوات مرتفعة عالية، وكان يتعالى بين الحين والحين وسط ضجيجهم صوت مسعود الأصفر مجدداً ترحيبه بهم راجياً منهم أن يأكلوا بلا خجل كأنهم في بيوتهم، ولم يكن شفيق الكوا راضياً عن تلك السهرة، ولكنه استمر في العزف على العود والغناء حتى تقطعت أوتار العود فجأةً ولسبب غير معلوم، فتوقف عن الغناء، فشخصت إليه الأنظار مستغربة، وهرع إليه مسعود الأصفر قلقاً، فقال له شفيق الكوا مطمئناً: "قضاء وقدر! سأحاول الغناء بلا عود".

فقال مسعود معترضاً: "ولكننا اتفقنا قبل السهرة على أن تعزف على العود وتغني، فإذا غنيت فقط، فلن تأخذ إلا نصف الأجرة". فامتعض شفيق، ولكنه قال لمسعود مسائراً: "كل ما يهمني الآن هو أن يكون ضيوفك مسرورين".

فصاح أحد الرجال بصوت ثمل: "العمى! صوته مع العود كان لا يطاق ومن أنكر الأصوات، فماذا سيحل بنا يا شباب إذا واجهنا صوته وحده؟". وصاح رجل آخر: "أنا سأغني أحسن منه ومجاناً". وصاح رجل ثالث: "أنا أيضاً مستعد للغناء، وسأدفع لكل قبضاي يصبر على الاستماع لصوتي ما يأمرني به". وصاح رجل رابع: "ما عرفتنا بالاسم الصحيح لحضرة المطرب.. شفيق الكوا أم شفيق العوا؟".

فتعالت الضحكات، وعمّ الضجيج، فأحس شفيق أن كرامته أهينت وستهان أكثر لو سكت، فقال لمسعود مشيراً إلى الرجال: "إذا لم يكف الأخوان عن التهكم عليّ وعلى صوتي، فسأترك البيت أسفاً". فقال له مسعود بصوت ساخط ساخر: "بلا أسفاً بلا قاسفاً! الطريق إلى باب البيت تعرفه أم أدلك عليه؟".

فحمل شفيق الكوا عوده، وغادر بيت مسعود الأصفر، ومشى في الأزقة المظلمة الموصلة إلى بيته وهو يشتم زماناً خسيساً ندلاً أرغم أمثاله على الغناء أمام مجموعة من السكارى المسطولين، وعندما وصل إلى بيته حاول أن يستبدل أوتار عوده، ولكنه لم يعثر لديه على أية أوتار جديدة، ووقف أمام مرآة طويلة، وغنى بصوت خافت ما لبث أن ارتفع وحلق، فجاءه رسول من قصر الخليفة يأمره بالمثول حالاً بين يدي

الخليفة للغناء له، فأبى شفيق قائلاً أنه أقسم ألا يغني إلا للشحاذين، فأتاه الخليفة بنفسه، وبمفرده ومن غير حراس أو أعوان، وقعد على البساط الممدود على الأرض، ورجاه أن يغني له، فلم يتغير جواب شفيق: لا يغني إلا للشحاذين، فابتسم الخليفة، وقال لشفيق: "أين عيناك؟ ألا ترى أنني لست الآن خليفة المسلمين بل أنا مجرد شحاذ يستجدي قلبه الوحيد القليل من المتع؟". وتنهد الخليفة، وحكى لشفيق عما يشعر به كل ليلة من كآبة قاتلة وعذاب قاهر وسأم مبيد بعد أن هجرته المرأة التي لا يحب سواها، وعشقت عبداً من عبيدها، فأشفق شفيق على الخليفة، ووافق على الغناء له، فقال الخليفة: "كلي أذان صاغية".

وغنى شفيق، فطرب الخليفة أشد الطرب، واستزاده، فلم يبخل شفيق عليه، وغنى ساعات حتى صاح الخليفة بشفيق متضرعاً إليه أن يكف عن الغناء قليلاً قبل أن يتوقف قلبه عن الخفقان لفرط ما شعر به من سعادة وفرح ونشوة، ولم يعد يحتمل المزيد، فأطاعه شفيق، وأصغى مطولاً إلى مدائح الخليفة له، وناشده الخليفة أن يوافق على أن يصبح المغني الأول في مملكته، ولا يحق لأحد الغناء إلا بعد أن يمتحنه ويجيزه، فهم شفيق بالرد، ولكنه سمع في تلك اللحظة قرعاً شديداً على باب البيت، فنظر إلى الخليفة نظرة متسائلة، فأذن الخليفة له بفتح الباب، فهرع إليه، وفتحه ليجد أمامه شرطياً عابس الوجه يخبره أن جيراناً له اتصلوا بمخفر الشرطة مشتكين ومدعين أن في بيته رجلاً يضرب بقسوة ووحشية ويصرخ مستنجداً متوجعاً، فدهش شفيق، وأنكر مزاعم الجيران بصوت حانق، وقال للشرطي: "بعد وفاة السيدة الوالدة لا أحد يعيش في هذا البيت سواي، وفي استطاعتك التأكد بنفسك، فتفضل.. البيت بيتك".

فدخل الشرطي البيت، وفتش غرفة غرفة تفتيشاً دقيقاً متأنياً، ولم يعثر لا على مضروب ولا على ضارب، فازداد عبوس وجهه، وخرج من البيت راثياً لأحوال الناس المبتلين بجيران كذابين.

الغيث

كانت نائلة واقفة في باحة البيت تدندن بأغنية غير مرحة وتحمل يداها إبريقاً زجاجياً مملوءاً بالماء وتسقي أصص الورد، فسمعت جرس باب البيت يرن بالحاح، وسارعت إلى فتح الباب لتجد أجيراً صغير السن أخبرها بصوت متقطع مذعور أن زوجها كاظم الحموي أغمي عليه وهو في متجره، ونقلته سيارة إسعاف إلى المستشفى، ولكنه مات قبل أن يصل إليه، فأفلتت أصابع يديها إبريق الماء وسقط مكسراً على الأرض وتناثر شظايا، وفتحت عينيها إلى أقصاهما مدهوشة مذهولة مبهوتة، وشلها حزن قاهر منعها من البكاء والندب والصراخ ولطم الوجوه والصدور، واكتأبت كآبة جعلتها تقعد على الأرض الباردة ذاهلة عن الكرسي الوثير القريب منها، وفجأة

خضعت لخشوع جارف، فانحنى على الأرض وقبلتها، ونظرت إلى السماء، وصرخت: "أنت كبير يا رب!".

وكان للمصائب سحرها الغامض العسير على التأويل، فعندما قعدت نائلة على الأرض كانت مجرد امرأة في الثلاثين من عمرها، ولكنها عندما نهضت واقفة كان عمرها أقل من عشرين سنة، واختفى اللون الأصفر من جلدها ليحل محله لون وردي، وهرعت إلى المطبخ، ودلقت في البالوعة الزيت والسمن والخل، ونثرت على الأرض البرغل والأرز والعدس والفلفل والزعتر والملح كأن الطعام لم يعد مستساغاً بعد موت زوجها، وخرجت من المطبخ، وركضت بين غرف البيت، وجمعت كل ما لدى زوجها من ثياب، وقطعتها بالمقص قطعاً صغيرة، ورمتها في باحة البيت، وأشعلت فيها النار، وأتلفت كل الصور الفوتوغرافية لزوجها وهي المؤمنة أن تقليد الخالق كفر، وحذفت من أرشيف زوجها في الآخرة صفحة خطيرة ملأى بالذنوب، وما كان يدهمها من حزن طاغ جعلها تنسى ارتداء ملاءتها السوداء، وسارت في الجنازة وراء التابوت الذي سجي فيه زوجها حاسرة الرأس وشعرها الأسود الطويل يتهدل على كتفيها ووجها متطائراً في الهواء، ولم تشتتر ثوباً حالك السواد لحرصها على ألا تنفق أموال زوجها إلا على أعمال البر والإحسان، واكتفت بارتداء ثوب أحمر ضيق قصير لن يصل إلى ركبتين بلون الحليب مهما حاول وركض، ومشيت به بخطوات متباطئة وقور جعلت الرجال لا ينامون في الليل حزاني، وعندما وصلت الجنازة إلى المقبرة ووضع زوجها في حفرة القبر وأهيل التراب عليه، طاش صوابها، وزغردت وهي تظن أنها تولول، وصاحت به متسائلة بصوت ملتاغ: "كيف رحمت يا كاظم وتركتني؟".

وكان زوجها كاظم الحموي غصناً مقطوعاً من شجرة مجهولة، لا أهل له البتة، وكان غنياً لا يثق بالمصارف ولا بالأوراق النقدية، وكل ما يجمعه يحولّه ليرات ذهبية ويخبئها في بيته في أماكن سرية لا تجهلها نائلة، وكان يملك متجرًا كبيراً يحتوي جميع أنواع الأقمشة وأغلاها، فباعته نائلة على عجل بكل ما فيه كأنها على سفر قريب، فلم تسافر، ولكنها لم تستطع العيش في بيت شهد حياتهما حلوها الكثير ومرها القليل، فباعته أيضاً، واشترت بيتاً آخر أكبر وأفخم حتى يتسع لذكرياتهما المشتركة مع زوجها، وفرشته من أوله إلى آخره بأثاث جديد، ولم يكف الرجال متزوجين وعزاباً عن التردد إليه لتقديم تعازيهم إلى امرأة لا تنسى زوجها الذي مات.

قبر خاو

كان الجنرال رجلاً ذا رئتتين ومعدة وأمعاء غليظة وأمعاء دقيقة وكبد وشرابين ملأى بالدم الأحمر، ولا يختلف عن غيره من الرجال إلا بكونه جنرالاً في جيش محارب في بلاد ليست بلاده، وكان الجنرال كثير الضجر من مهنته الخالية من الإثارة، ويحلم

بأن يعمل يوماً في مزرعة لتربية البقر والغنم أو في مستشفى للمعوقين والمسنين، وكان الجنرال صارماً كثيراً لاكتئاب، لا يبتهج إلا حين يتخيل عصفوراً صغيراً يحاول الطيران ويخفق، ولا يبتهج إلا حين يتخيل جنوده المطيعين لأوامره يحتلون القرى والمدن متنافسين على هدمها وقتل سكانها، ولا يبتهج إلا حين يتخيل أنه يزود جنوده بأسلحة قادرة على إبادة مئات الألوف في ثوان، فلا يحاولون استخدامها حتى لا يحرّموا قتل أعدائهم ببطء وتشف، وابتهج في أحد الأيام ابتهاجاً مختلفاً حين تنبه إلى أن شعراً جديداً أسود بدأ ينبت في رأسه ويحلّ محل الشعر القليل الأشيب، وتباهى به دليلاً على الرجولة وعودة الشباب، وتزايد نمو شعر جسمه مغطياً الجلد بطبقة كثيفة خشنة، وتبدل شكل وجهه تدريجياً، وحاول في إحدى الليالي أن يستسلم للنوم، فأخفق، وأحس بقوة غامضة تجتاح كل جسده، فقفز من سريره، وتمطى أمام المرأة وهو ينظر إليها ملياً، فرأى أنه قد صار ضبعاً ذا مهابة مغطى بشعر كثيف، واستحالت أظافر يديه مخالب وأسنانه وأضراسه أنياباً، فاستمتع بتبدله، ودهمه جوع لا يقاوم، فانقض على عنق زوجته التي كانت نائمة، وقتلها قبل أن تصحو من نومها، ولكنه لم يستسغ لحمها المترهل القاسي، فتركها مشمئزاً، ووثب على ابنها الرضيع المبتسم إبان نومه، وأعجب بلحمه الطازج الغض.

وكان أحد حراس الجنرال واقفاً خارج غرفة النوم مشدود القامة وإصبعه على زناد بندقيته تاهباً لأي حدث طارئ، فبوغت بضبع يخرج من الغرفة ملطخاً بالدماء، فبادر إلى إطلاق النار عليه، وأرداه قتيلاً، فتراكض بقية الحراس مضطربين متصايحين، وعثروا على بقايا الزوجة وابنها، ولم يعثروا على الجنرال، فساد اعتقاد بأن الضبع أكله بأكمله، ولم يترك منه ما يحتاج إلى قبر.

الساحر

أوثقت يدا طفل في الخامسة من عمره خلف ظهره، وعُصبت عيناه الخضراوان بقطعة قماش قاتم، ووقف قبالة خمسة جنود وقفة استعداد متكبين بنادقهم متأهبين لتنفيذ الجديد من أوامر ضابطهم المتوقعة.

وتعالى صوت ضابطهم أمراً، فسددوا بحركات سريعة فوهات بنادقهم نحو قلب الطفل، وأمرهم ضابطهم بإطلاق النار، واختلط صوت الضابط الصارم الأمر بضحكة ندت آنذاك عن الطفل، وبلغت مسامع الجنود الخمسة، فتذكر الأول زوجته الجميلة حين تضحك، وتذكر الثاني سريره قرب نافذة مطلة على نهر، وتذكر الثالث شارعاً مشجراً يمشي فيه مثرثراً مع صديق، وتذكر الرابع يوم كان صغير السن يعلمه أبوه صيد السمك على شاطئ بحر، وتذكر الخامس أمه تكبر في السن فجأة يوم مرض.

وبادر الجنود الخمسة إلى إطاعة الأمر العسكر، وأطلقوا نيران بنادقهم على صدر

ضابطهم الذي تهاوى أرضاً مثقوباً خمسة ثقوب دامية، وانتظروا غير آسفين أن تطلق النار على صدورهم، ولكنهم ظلوا أحياء ومات الأمر بإطلاق النار. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: majallat@palestine-studies.org
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>